جامعة إب
مجلة الباحث الجامعي
ISSN: 2079-5068 ISSN (online): 2663-3930

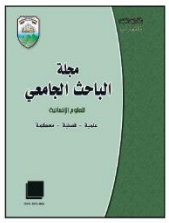

الأبعاد التداولية للإشاريات في الخطاب القرآني من خلال تفسير أبي السعود: نماذج مختارة

ربا حمود ناجي الورافي
قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة إب، اليمن
Email: Dr.roba.wrafi@gmail.com

الكلمات المفتاحية:
التداولية، الإشاريات، السياق، المقاصد، الخطاب القرآني، تفسير أبي السعود

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن الأبعاد التداولية للإشاريات في الخطاب القرآني من خلال تفسير أبي السعود العمادي المسمى بـ(إرشاد العقل السلم إلى مزايا الكتاب الكريم)؛ ودراستها وفق المنهج التداولي؛ باعتبار أن الإشاريات من المفاهيم التداولية التي تدرس اللغة في سياق الاستعمال، وقد اقتضت طبيعة البحث أن يقسم البحث على مبحثين، تسبقهما مقدمة وتقفوهما خاتمة، يتناول المبحث الأول: الإشاريات في الدرس التداولي، ويركز المبحث الثاني: على الإشاريات في الخطاب القرآني من خلال تفسير أبي السعود، ويشمل أنواع الإشاريات الشخصية والزمانية، المكانية، والاجتماعية، الخطابية، ثم خُتم البحث بمجوعة من النتائج أبرزها: وعي أبي السعود المبكر بآليات التداولية ومنها الإشاريات، مما يؤكد تلاقي التراث مع اللسانيات المعاصرة لاسيما التداولية.

الأبعاد التداولية للإشاريات في الخطاب القرآني من خلال تفسير أبي السعود: نماذج مختارة

Pragmatic Dimensions of Deixis in the Qur'anic Discourse in Abu Al-Su'ud's Exegesis: Some Selected Models

Ruba Hmood Naji Al-Worafi
Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Ibb University, Yemen
Email: Dr.roba.wrafi@gmail.com

Keywords:

Pragmatics, deixis, context, purposes, the Qur'anic discourse, Abu Al-Su'ud's exegesis

Abstract:

This article aims to uncover the pragmatic dimensions of deixis in the Qur'anic discourse in Abu Al-Su'ud's exegesis, "Irshad Al'aql AlSalim ila Mazaya AlKitab AlKarim", in pragmatic framework, based on the use of deixis in pragmatics. The study is divided into an introduction and two main sections. Section 1 tackles deixis in pragmatic theory. Section 2 examines deixis in the Qur'anic discourse in Abu Al-Su'ud's exegesis. It discusses several types of deixis: personal, temporal, spatial, social, and discursive. It concludes that Abu Al-Su'ud's early awareness of pragmatic mechanisms including deixis, which underscores the convergence between Arabic heritage and contemporary linguistics, specifically in pragmatics.

1- المقدمة:

تعد التداولية فرعًا من اللسانيات الحديثة التي تهتم بدراسة المعنى في ضوء السياق والمقام، وتبرز العلاقة بين المتكلم والمخاطب، ويعد تحليل الإشاريات من أبرز أدوات التحليل التداولي؛ لما تكشفه من علاقات تأصيلية تسهم في تحديد دلالة النص.

وقد أثبت كثير من الدارسين في التراث العربي أن كثيرًا من المفاهيم التداولية كانت حاضرة فيه حضورًا فعليا، فقد اعتنى علماء اللغة والبلاغة والتفسير بقضايا السياق والمقام، ومراعاة أحوال المخاطب، ووظيفة القرائن في تحديد المعنى، وهي جوهر ما تقوم عليه التداولية اليوم.

فالتداولية اليوم يمكن القول عنها بأنها امتداد منهجي وتأصيل نظري لبعض الممارسات التأويلية

وتحقيقًا لهذه المقاربة، تم اختيار عنوان يتناسب وهذا المقتضى، وسم بـ **(الأبعاد التداولية للإشاريات في الخطاب القرآني من خلال تفسير أبي السعود، بالوقوف على نماذج مختارة).**

أولًا: إشكاليات البحث:

بالنظر إلى ما تقدم، لا يمكن الوقوف عند هذه الفرضية منهجيًا ما لم يضع الباحث بعض الخطوط العريضة مسبقًا التي تتحقق من خلال التساؤلات الآتية:

ما المقصود بالإشاريات؟، وكيف يمكن توظيف واستثمار العناصر الإشارية في التحليل التداولي للخطاب القرآني في تفسير أبي السعود؟، ما مدى وعي أبي السعود بالملامح التداولية، ما هي الأبعاد التداولية المراد إبلاغها من وراء التلفظ بالعناصر الإشارية؟.

ثانيًا: أهمية البحث:

1- إن تناول هذا الموضوع يسهم في تأكيد حضور آليات المنهج التداولي في النصوص التراثية ومنها كتب التفاسير.

2- إن موضوع الإشاريات في تفسير أبي السعود، لم يتناوله أحد بالدراسة التحليلية التداولية.

3- إبراز دور الإشاريات التداولي في الكشف عن أبعاد تواصلية تأويلية أعمق في النص القرآني، ومقاربة ذلك بما ورد عند أبي السعود.

ثالثًا: أهداف البحث:

يهدف البحث إلى:

1- الكشف عن الأبعاد التداولية للإشاريات وتحليلها في الخطاب القرآني من خلال تفسير أبي السعود.

2- بيان أثر الإشاريات في اتساق النص وترابطه، وهل فطن أبو السعود لوظيفتها التداولية في النص؟.

3- بيان توظيف أبو السعود للقرائن اللغوية والسياقية في سبيل تفسير الإشاريات وتحديدها ، وتوضيح كيف أسهم التحديد الإشاري في توجيه المعنى وتوجيهه؟.

رابعًا: المنهج المتبع:

يعتمد البحث المنهج التداولي القائم على وصف كيفية التداول للعناصر الإشارية وتحليلها

وتتبعها والكشف عن أبعادها التداولية في الخطاب القرآني من خلال تفسير أبي السعود.

خامسًا: سبب اختيار الموضوع:

1- يطمح الباحث من خلال هذه الدراسة إلى المقاربة بين أصالة التفسير القرآني وحداثة الآليات التداولية، بما يخدم تحليل الخطاب التفسيري، ويؤسس لقراءة واعية لتراثنا العربي.

2- يربط هذا البحث بين التراث والدرس اللساني الحديث، ويعيد قراءة التراث من زاوية تداولية معاصرة، ويظهر أن كثيرًا من مفاهيم التداولية كالسياق والإشاريات لم تكن غائبة عن أذهان علمائنا الأوائل؛ بل كانت حاضرة لديهم.

سادسًا: الدراسات السابقة:

1- الأبعاد التداولية للإشاريات في سورة البقرة، ماجستير، إعداد صليحة بن واكته، إشراف الدكتورة فوزية دندوقة، الجزائر، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2015م -1437هـ.

كلا البحثين تناولا النص القرآني، والاختلاف يكمن في أن التحليل التداولي للإشايات في الأول محدد في سورة البقرة، بينما يقف البحث الحالي عند نماذج مختارة على مستوى السور.

2- التأشير والتباعد بين القدماء والمحدثين، مقاربة تداولية، دلخوش جار الله حسين دزه، جامعة صلاح الدين، إقليم كوردستان، العراق، مجلة جامعة زاخو، المجلد 3، العدد 2. 2015م.

يتشابه البحث الحالي مع هذه الدراسة في كونه يربط بين الدرس اللساني القديم والدرس اللساني الحديث، ويختلفان في كون الأول تأسيس نظري والثاني تطبيقي.

وهناك دراسات أخرى مثل:

1- الأبعاد التداولية للإشاريات في سورة البقرة للطالبة/ صليحة بنت واكته.

2- الإشاريات المقامية الشخصية وأبعادها التداولية في الخطاب النبوي، للباحث/ حميدات الحمعي.

3- الإشاريات الشخصية ومقاصدها التداولية في شعر البردوني.

4- الإشاريات في سورة مريم، دراسة تداولية، إفهام عبد الحافظ القباطي.

5- الإشاريات وتجلياتها التداولية في التفسير، نماذج من سورة الأنفال، د. أحمد محمود زكريا.

6- تداولية الإشاريات في الخطاب القرآني، حمادي مصطفى.

7- الإشاريات في الخطاب النبوي مناقب الأنصار، رؤية تداولية، رشا عبد الرؤف عبد الفتاح الحبيشي.

8- الإشاريات في كتاب سيبويه، د. صباح عبد الهادي كاظم.

9- الأبعاد التداولية للإشاريات في الأمثال الشعبية الجزائرية، للطالبة/ الوشعي العطرة.

يتفق البحث مع هذه الأبحاث في بعض المفاهيم ويختلف عنها في الجانب التطبيقي.

سابعًا: هيكل البحث:-

المقدمة.

المبحث الأول: الإشاريات في الدرس التداولي.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف التداولية:

المطلب الثاني: الإشاريات في الدرس التداولي.

المطلب الثالث: التعريف بالمدونة.

المبحث الثاني: الإشاريات في الخطاب القرآني من خلال تفسير أبي السعود.

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: الإشاريات الشخصية.

المطلب الثاني: الإشاريات الزمانية.

المطلب الثالث: الإشاريات المكانية.

المطلب الرابع: الإشاريات الاجتماعية.

المطلب الخامس: الإشاريات الخطابية

الخاتمة: وتضمنت أهم النتائج والتوصيات.

2- المبحث الأول: الإشاريات في الدرس التداولي.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب **الأول: تعريف التداولية:**

التداولية في اللغة: مأخوذة من مادة (د، و، ل)، دول: «تداول القوم الشيء (بينهم)، إذا صار من بعضهم إلى بعض»[1]، دَوَلَ: «يَدُلُّ عَلَى تَحَوُّلِ شَيْءٍ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ»[2]، «وقالُوا: دَوالَيْكَ: أي مُدَاولَةً على الأَمْر»[3]، «والله يداول الأيام بين الناس مرة لهم، ومرة عليهم، والدهر دول وعقب ونوب. وتداولوا الشيء بينهم. والماشي يداول بين قدميه يراوح بينهما. وتقول: دواليك أي: دالت لك الدولة كرة بعد كرّة»[4]، «وَقَالَ الزَّجَّاجُ: الدُّولة اسْمُ الشَّيْءِ الَّذِي يُتداول»[5].

التداولية اصطلاحا: للتداولية تعريفات متعددة وجميع هذه التعريفات تنصب في أنها: دراسة تعنى باستعمال اللغة[6].

لقد ظهرت التداولية كمنهج لساني حديث في الغرب، حيث قدم الفيلسوف ويليم موريس تعريفا لها عندما عد التداولية بعدًا ثابتًا من أبعاد السيميائيات بعد البعدين التركيبي والدلالي، فالأول يتعلق باللغة، والثاني بالدلالة ليصل إلى أن التداولية جزء من السيميائية التي تعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات[7].

ويعرفها جاك ليرو بقوله: تدرس اللسانيات التداولية معنى العبارات من خلال العلاقة مع سياق التعبير[8].

وهي لدى فرانسيس جاك: تتطرق التداولية إلى اللغة بوصفها ظاهرة خطابية، وتواصلية، واجتماعية معا[9].

ويقدم فيلبس تعريفا لها فيقول: هي دراسة تعنى باستعمال اللغة، وتهتم بقضية التلاؤم بين التعابير الرمزية والسياقات المرجعية، والمقامية، والحداثية[10].

ويرى جورج يول: أنها دراسة المعنى كما يعبر عنها المتكلم، ويؤوله المستمع، وهي تدرس تفسير المعنى الذي يقصده المتكلم وكيفية إيصال أكثر مما يقال[11].

ويقول فاين دايك عن التداولية: أنها دراسة العلاقات بين الرموز والعلامات والمستعملين لها[12].

المطلب الثاني: الإشاريات في الدرس التداولي.

تُعرّف الإشاريات بأنها "العناصر اللغوية التي تحيل مباشرة على المقام، من حيث وجود الذات المتكلمة، أو الزمن أو المكان حيث ينجز الملفوظ، والذي يرتبط به معناه"[13]، وبالتالي؛ تصبح الإشاريات هي "تلك الأشكال الإحالية التي ترتبط بسياق المتكلم مع التفريق الأساس بين التعبيرات الإشارية القريبة من المتكلم، مقابل التعبيرات البعيدة عنه"[14].

والإشاريات لدى الباحثين خمسة أنواع: إشاريات شخصية، إشاريات زمانية، إشاريات مكانية، إشاريات اجتماعية، إشاريات خطابية"[15].

وقد مثلت الإشاريات البداية الحقيقية للتداولية (pragmatict)، مصطلحًا ومفهومًا، وذلك على يد الفيلسوف اللغوي موريس (morris)، عام 1938م، من خلال إبراز العلاقة السميولوجية الثلاثية، بحيث تستعمل العبارة لتبليغ شيء لشخص آخر، وقد خصص البعد الثالث منها للتداولية والمتمثل في دراسة العلاقة بين العلامة اللغوية ومستعمليها ومؤوليها، إلا أنها لم تهتم إلا بمسائل محددة تهم النسق اللغوي، إذ اتضح له في تلك الأثناء أن مجال التداولية لا يعدو العناية بضمائر الكلام، وظروف الزمان والمكان، ومختلف التعابير التي تستقي مرجعيتها من مقامات التواصل، وإن كانت دراسته لم تتوسع في دراسة هذه المباحث، إلا أنها حازت قصب السبق من جهة، ومهدت الطريق للدراسات اللسانية اللاحقة التي اهتمت بقضايا التلفظ والملفوظ من جهة أخرى[16].

إذ يذهب بارهييل (Bar Hillel) 1954م إلى "أن أكثر من تسعين بالمئة من التلفظات التي ننطق بها في سياق حياتنا اليومية، هي تلقظات إشارية يحددها السياق التلفظي الذي وردت فيه"[17]، وهذا ما يجعلها وثيقة الصلة بحقل التداولية، لأن وظيفتها التداولية "تهتم مباشرة بالعلاقة بين تراكيب اللغة والسياق الذي تستخدم فيه"[18].

أما فاندرفكن (Vanderoeken)، 1976م، فقد قدم تصورًا للوظيفة التداولية التي تكتسبها الإشاريات وفقًا للظروف المحيطة بعملية التلفظ في سياق التواصل في الحياة اليومية فقال: "يوجد في استعمالاتنا اللغوية وفي عدة صور أخرى في الحياة الإنسانية، بعض السمات الأساسية الحاضرة باستمرار في كل استعمال لغوي، من بينها الزمان والمكان، والمتكلم والمخاطب ... وكفاءة كل منهما، وعلاقات القرابة التي يمكن أن تربط بينهما، وكذا ما يدخل في مصلحة كل منهما أو ضدها، وما يمكن أن يكون حسنًا أو قبيحًا بشكل عام، وبعض هذه السمات هي بمثابة مبادئ عليا لأنها أساسية لكل لغة إنسانية، بينما تظل مجموعة أخرى من السمات الأخرى المكونة لاستعمالاتنا

اللغوية؛ مجرد سمات نسبية تابعة لظرف تاريخي خاص داخل مجتمعاتنا الإنسانية"[19].

المطلب **الثالث: التعريف بالمدونة.**

يعد تفسير أبي السعود من أشهر التفاسير في العهد العثماني وأجلها، وهو الذي أعان الناس على تفسير كلام الله، وأخذ تفسيره يجوب الأمصار، وهو التفسير المعروف الْمَشْهُور عِنْد النَّاس بتفسير أبي السُّعُود سَمَّاهُ (إرشاد الْعقل السَّلِيم إِلَى مزايا الْكتاب الْكَرِيم) وَهُوَ من أجل التفاسير، وأحسنها وأكثرها تَحْقِيقا، وتدقيقاً وأهداه للسُّلْطَان سُلَيْمَان خَان، فأنعم عَلَيْهِ بنعم وَزَاد في معلومه اليومي زِيَادَة وَاسِعَة، وَكَانَ قد تناهت عَظمته فِي الممالك الرومية[20].

وَكَانَ تَفْسِيره من أَمْثَال الْكَشَّاف، والبيضاوي من أكمل التفاسير، وَعَلِيهِ تعليقة عَظِيمَة للْعَالم الْفَاضِل الشَّيْخ رَضِي الدّين ابْن الشَّيْخ يُوسُف[21].

كما جمع فيه ما في تفسير البيضاوي، وقد ذُكر سابقا، وزاد فيه زيادات حسنة من تفسير القرطبي، والثعلبي والواحدي، والبغوي ويذكر ذلك صراحة في مقدمة تفسيره[22].

"وقد تولى المفسر أبو السعود شرح خطته ومنهجه في ذلك التفسير، فذكر أنه اشتغل طويلا بالتفسيرين العظيمين تفسير الزمخشري، وتفسير البيضاوي مطالعة، وممارسة، وانتصابا للتدريس والتقرير، وأنه طالما فكر في أن ينظمهما في سلك واحد، ويرتبهما على ترتيب أنيق، وأن يضيف إليهما جواهر الحقائق، وزواهر الدقائق (....) حتى تقدم به السن، فهناك عزم على إملاء ما كان يصبو إليه في أوقات مختزلة بين الأشغال، وبأفكار موزعة بما يشغل البال"[23].

3- المبحث الثاني: الإشاريات في الخطاب القرآني من خلال تفسير أبي السعود.

المطلب الأول: الإشاريات الشخصية.

الإشاريات الشخصية هي: "الإشاريات الدالة على المتكلم أو المخاطب، أو الغائب"[24]، كالضمائر وأسماء الإشارة، والأسماء الموصولة[25]"، فالذات المتلفظة، تدل على المرسل في السياق؛ فقد تصدر خطابات متعددة عن شخص واحد، فذاته المتلفظة تتغير بتغير السياق الذي تلفظ فيه، وهذه الذات هي محور التلفظ في الخطاب تداوليًا؛ لأن الذات قد تحيل على المتلفظ الإنسان أو المعلم، أو الأب وهكذا ..."[26]؛ أي إن القالب الشكلي للضمير يبقى ثابتًا، في حين أن المعنى يتغير بتغير السياق الذي يرد فيه، كما تعمل ضمائر المتكلم والمخاطب على تقليص المسافة بين طرفي الخطاب، فتكون العلاقة بين الطرفين في نهاية الخطاب أحسن منها في بدايته، فضلًا عن إمكانية تعبير الضمير نفسه عن ذوات مختلفة؛ لأن الضمائر أشكال لسانية فارغة تتناسب مع كل متكلم، فهي تمنح له القدرة على التعبير عن ذاته[27]، فضلًا عن أن "ممارسة التلفظ هي التي تدل على المرسل في بنية الخطاب العميقة، مما يجعل حضور (الأنا)؛ يرد في كل خطاب، ولهذا فالمرسل لا يضمنها شكلًا في كل خطاب، لأنه

يعول على استحضارها؛ لتأويل الخطاب تأويلًا مناسبًا"[28].

إذن: فالعناصر الإشارية الدالة على شخص هي الضمائر الدالة على المتكلم وحده مثل: (أنا)، أو المتكلم ومعه غيره مثل: (نحن)، والضمائر الدالة على المخاطب مفردا، أو مثنى، أو جمعًا مذكرا، أو جمعًا مؤنثا، وكذلك ضمائر الحاضر هي دائما عناصر إشارية، وهي كمثل غيرها من الضمائر؛ لأن مرجعها يعتمد اعتمادًا تامًا على السياق، وليس من شك في أن الضمير (أنا)، و(أنت)، ونحوهما لهما دلالة في ذاته على المتكلم، أو المخاطب، لكن السياق لازم لمعرفة المتكلم، أو المخاطب الذي يحيل إليه الضمير (أنا وأنت)، فضلًا عن أن الضمير (أنت) للمخاطب أو المخاطبة، من الضمائر التي تستدعي حضور المتكلم والمتلقي معًا؛ لضمان التواصل الناجح، لأن ضمائر الخطاب تقوم بوظيفة تنبيهية وتبليغية [29]، أما ضمير الغائب فيدخل في الإشاريات إذا كان حرا أي: لا يعرف مرجعه من السياق اللغوي، فإذا عُرف مرجعه من السياق اللغوي خرج من الإشاريات، ويضيف فلاسفة اللغة بعدا آخر يتمثل في شرط الصدق، وهو التحقق من مطابقة المرجع للواقع[30].

ومن أمثلة الإشاريات الشخصية في الخطاب القرآني، قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨].

فالإحالة بالضمير (أنا) في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ ، يدل في سياق التلفظ على مشاركته -صلى الله عليه وسلم- لأمته وإرادته الخير لهم، حيث أفاد الضمير بمعنى ضمني يتمثل في التأكيد على ما يبشر به وينذر به، وهذا ما نلمحه في قول أبي أبي السعود: «بحفيظ موصول إلى أمركم، وإنما أنا بشيرٌ ونذير»[31].

والضمير (نحن) هو العنصر الإشاري الذي أدى غرض التكلم مع دلالة الجمع، وله في الخطاب دلالة على التضامن في بنية الخطاب العميقة التي تعد استعمال المرسل لها دليلا على حضور الطرف الآخر واستحضاره حتى لو كان غائبا عن عينيه[32].

ومن مظاهر الإحالة بالضمير (نحن) ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[البقرة: ١١].

فالضمير (نحن) في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، يشير إلى المنافقين، ويقتضي في سياق التلفظ إنكارهم الفساد المنسوب إليهم وادعائهم الصلاح، ويتجلى هذا المعنى في قول أبي السعود:«لهم عذاب أليم بكذبهم، وبقولهم حين نهوا عن الإفساد إنما نحن مصلحون»[33].

ويزخر النص القرآني بالأفعال التي تتضمن ضمائر مستترة، ويكون لازماً وغير لازم، فاللازم في أربعة أفعال وهي: افعل وتفعل للمخاطب، وافعل ونفعل وغير اللازم في فعل الواحد الغائب وفي الصفات، ومعنى اللزوم فيه أن إسناد هذه الأفعال إليه خاصة لا تسند البتة إلى مظهر ولا

إلى مضمر بارز، ونحو فعل ويفعل يسند إليه وإليهما في قولك (عمرو قام)، و(قام غلامه)، و(ما قام إلا هو). ومن غير اللازم ما يستكن في الصفة نحو قولك (زيد ضارب)؛ لأنك تسنده إلى المظهر أيضاً في قولك (زيد ضارب غلامه)، وإلى المضمر البارز في قولك(هند زيد ضاربته هي)، و(الهندان الزيدان ضاربتهما هما)، ونحو ذلك مما أجريتها فيه على غير من هي له[34].

ومن مظاهر الإحالة بالضمائر المستترة، قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ...﴾ [البقرة: 25].

فالضمير المستتر (أنت) في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، يحيل للنبي –ﷺ–، ويقتضي في سياق التلفظ الترغيب وحث المؤمنين على الاتقاء والمداومة على فعل الأعمال الصالحة، ويتضمن تحذير الكفار من الاستمرار على الكفر، وهذا ما نلمحه في قول أبي السعود: «وتعليقُ التبشير بالموصول للإشعار بأنه معلَّلٌ بما في حيز الصلة من الإيمان والعملِ الصالحِ، لكن لا لذاتهما فإنها لا يكافِئان النعمَ السابقة فضلاً من أن يقتضِيا ثواباً فيما يستقبل بل بجعل الشارعِ ومقتضى وعدِه وجعل صلتِه فعلاً مفيداً للحدوث بعد إيرادِ الكفارِ بصيغة الفاعل لحثِّ المخاطبين بالاتقاء على إحداث الإيمان وتحذيرِهم من الاستمرار على الكفر والخطاب للنبي –ﷺ–»[35].

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: 211].

يشير الضمير المستتر (أنت) في قول تعالى: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ إلى النبي –ﷺ–، ويدل في سياق التلفظ على الزجر والتقريع لليهود والكفار وتحذيرهم من المصير الذي حل ببني إسرائيل، الذين أعرضوا عن الحق وغرتهم الحياة الدنيا، وهذا ما نستشفه من قول أبي السعود: «الخطاب للرسول –ﷺ–، أو لكل أحدٍ من أهل الخطابِ والمرادُ بالسؤال تبكيتهم وتقريعهم بذلك وتقرير لمجيء البينات»[36].

وقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ﴾ [النساء: 84] .

فالضمير المستتر في قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلْ﴾، أي: أنت، يدل في سياق التلفظ على توجيه الخطاب إلى الرسول -ﷺ- بطريق الالتفات؛ أي إذا كان الأمرُ كما حُكي من عدم طاعةِ المنافقين وكيدِهم وتقصيرِ الآخَرين في مراعاة أحكامِ الإسلامِ فقاتِلْ أنت وحدَك غيرَ مكترثٍ بما فعلوا[37].

ومن أمثلة الإحالة بضمير المخاطب قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ

وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 49].

فالإحالة بضمير المخاطبين ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾، يتضمن في سياق التلفظ تأكيد الامتثال لأوامر الله تعالى، واستدعاء بني إسرائيل وحضورهم في مشهد حاضر يُسمع ويُرى، ويظهر وعي المفسر بالقيمة التداولية لضمير المخاطبين«﴿مّن رَّبِّكُمْ﴾، لابتداء الغايةِ مجازا متعلقةٌ بمحذوف وقعَ صفةً لآيةٍ أي قد جئتُكم ملتبساً بآية عظيمةٍ كائنةٍ مّن رَّبِّكُمْ أو أتيتكم بآية عظيمة كائنةٌ منه تعالى والتعرضُ لوصفِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ إلى ضمير المخاطَبين لتأكيد إيجاب الامتثالِ بما سيأتي من الأوامر»[38].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (124) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ[﴾آل عمران: 125].

فالقوة التداولية لضمير المخاطَبين ﴿أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ﴾، هي إظهار العناية بهم وإنكار عدم كفاية الإمداد بذلك المقدار، وهذا ما نلمحه في قول أبي السعود:«والتعرض لعنوان الربوبية ههنا وفيما سيأتي مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين؛ لإظهار العنايةِ بهم والإشعارِ بعلةِ الإمداد والمعنى إنكارُ عدمِ كفايةِ الإمدادِ بذلك المقدار ونفيُه وكلمة لَنْ للإشعار بأنهم كانوا حينئذ كالآيسين من النصر لضعفهم وقلّتِهم وقوةِ العدوّ وكثرتهم»[39].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [طه: 47].

إضافة الضمير الكاف إلى رب في ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، يقتضي في سياق التلفظ وجوب الامتثال والخضوع لله، فلم يقولا ربنا وإنما ربك مناسبة لسياق الحال؛ لأن فرعون كان يعلم الناس أنه هو الرب، فهذه الإضافة مقصودة لإلزام فرعون الحجة، فهو ربه، وليس غريبًا عنه، واستدراجًا له للإقرار بأن الله رب الناس جميعًا، وتلطفًا في الدعوة، وتكرار كلمة (ربك) مع إمكانية التعبير بضمير الغائب يعكس الحرص على استمرار المواجهة المباشرة والضغط النفسي بهدف الإقناع والتأثير، فالتكرار إلزام حجاجي لإقناعه بحتمية الخضوع لله، وهذا ما نلمحه في تفسير أبي السعود«﴿قد جئناك بآية مّن رَّبّكَ﴾ تقريرٌ لما تضمنه الكلامُ السابق من دعوى الرسالةِ وتعليلٌ لوجوب الإرسالِ فإن مجيئَهما بالآية من جهته تعالى مما يحقق رسالتهما ويقررها ويوجب الامتثالَ بأمرهما وإظهارُ اسمِ الربِّ في موضع الإضمار مع الإضافة إلى ضمير المخاطبِ لتأكيد ما ذُكِرَ من التقريرِ والتعليل وتوحيدُ الآيةِ مع تعدّدها لأن المرادَ إثباتُ الدعوى ببرهانها لا بيانُ تعدّد الحجةِ»[40].

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ}[يونس: 78].

الانتقال من خطاب المفرد إلى خطاب المثنى؛ لأن موسى –عليه السلام– هو الذي كان يتحدث عن الرسالة، فكان قولهم: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ ردًا على كلامه، ثم جاء الخطاب بطريقة المثنى؛ لاتهامهما في نواياهما، فهما الاثنان يحملان الدعوة معًا، وهم يظنون أن نواياهما من وراء هذه الدعوة نيل العلو والسيادة، وهذا الانتقال في الخطاب من المفرد إلى المثنى من وسائل التدرج في الخطاب لذا يقول المفسر في تثنية الضمير {لكما}: «وتثنيةُ الضمير في هذين الموضعين بعد إفرادِه فيما تقدم من المقامين باعتبار شمولِ الكبرياءِ لهما عليهما السلام واستلزامِ التصديقِ لأحدهما التصديقَ للآخر وأما اللفت والمجئ له فحيث كانا من خصائص صاحب الشريعةِ أسند إلى مُوسى عليهِ السَّلامُ خاصة»[41].

ومن أمثلة ضمائر الغائب البارزة قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:1].

إن قيمة الضمير (هو) لا تكمن في التماسك النصي كونه يحيل إلى ما بعده فحسب؛ بل يحمل قيمة تداولية هي إثبات وحدانية الله تعالى وتعظيم للمخبر عنه، فضلًا عن أن ذكر الضمير وعدم الاكتفاء بذكر لفظ الجلالة فيه قيمة حجاجية، ففيه إثارة للانتباه، وتحفيز السامعين للإنصات لمعرفة إجابة تساؤلهم عن الإله، فكأنه يربط بين تصوراتهم الذهنية عنه وحقيقة الإله الفعلية، يقول المفسر: «الضمير للشأن ومدار وضعه موضعه مع عدم سبق ذكره الإيذان بأنه من الشهرة والنباهة، بحيث يستحضره كل أحد، وإليه يشير كل مشير، وإليه يعود كل ضمير كما ينبىء عنه اسمه الذي أصله القصد أطلق على المفعول مبالغة ومحله الرفع على الابتداء خبره الجملة بعده، ولا حاجة إلى الربط؛ لأنها عين الشأن الذي عبر عنه بالضمير، والسر في تصدير الجملة به التنبيه من أول الأمر على فخامة مضمونها، وجلالة حيزها مع ما فيه من زيادة تحقيق وتقرير، فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر جليل فيبقى الذهن مترقبا لما أمامه مما يفسره ويزيل إبهامه ...»[42].

ومن شواهد ضمائر النصب المنفصلة قوله تعالى: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

فالقيمة التداولية لضمير النصب المنفصل هي الحصر والتخصيص؛ أي: لا تخافوا إلا مني، وقد استعمل الضمير في مقام التحذير، فمنح الخطاب قوة تأثيرية تداولية، يتمثل في استدعاء شعور الخوف من الله وحده، بالإضافة إلى غرض آخر، هو إقصاء أي شريك في الخوف أو الطاعة؛ مما يعزز سلطة الله الإلهية، ويبرز خطابًا تقويميًا توجيهيًا يعيد ضبط السلوك الإنساني، يقول أبو السعود: «(وإياي فارهبون) فيما تأتون وما تذرون خصوصا في نقض العهد، وهو آكد في إفادة التخصيص من (إياك نعبد) لما فيه مع التقديم من تكرير المفعول والفاء الجزائية الدالة على تضمن الكلام معنى الشرط، كأنه قيل: (إن كنتم راهبين شيئا فارهبوني، والرهبة خوف معه

تحرز، الآية متضمنة للوعد والوعيد ودالة على وجوب الشكر والوفاء بالعهد، وأن المؤمن ينبغي أن لا يخاف إلا الله تعالى)[43].

المطلب الثاني: الإشاريات الزمانية.

الإشاريات الزمانية هي ألفاظ تدل على زمان يحدده السياق بالقياس إلى زمان التكلم، على اعتبار أن زمان التكلم، هو مركز الإشارة الزمانية في الكلام، فإذا لم يعرف زمان التكلم، أو مركز الإشارة الزمانية التبس الأمر على السامع أو القارئ ومن الإشاريات الزمانية الآن، واليوم، وغدا، وحين ... [44]، والزمن في اللغة العربية يكون عن طريق قرائن متجاورة مع الأفعال، أو عن طريق ظروف الزمان التي تدعى بالمبهمات الزمانية مثل: (الآن وغدا واليوم وأمس وغير ذلك)[45]، وهذه الكلمات لا يتضح معناها إلا بالإشارة إلى زمان بعينه بالقياس إلى زمان التكلم، أو مركز الإشارة الزمانية[46].

والهدف من دراسة الإشاريات الزمانية في النص القرآني من خلال تفسير أبي السعود، يتمثل في الكشف عن الأبعاد التداولية للزمن في القرآن الكريم بوصفه آلية تسهم في توجيه فهم النص وتأويله، والوقوف على إبراز الأبعاد التداولية للإشاريات الزمانية في فهم دلالات النصوص ومقاصدها، فهي لا تصرح بالزمن فقط، بل تؤدي وظائف تداولية أيضًا، ومن مظاهر الإشاريات الزمانية المبهمة قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف:45] .

تتجلى القيمة التداولية في استعمال لفظ (أمة) في تضخيم الزمن فالمدة بين نسيان صاحب يوسف الناجي، وبين تذكره طويلة جدًا، فاللفظ أبرز تأخر تذكر يوسف رغم وصيته لصاحبه بأن يذكره عند ربه، فأظهر امتداد الزمن بين التذكر والحدث الثاني، وهذا ما نلمحه لدى أبي السعود «أي مدة طويلة»[47].

أما العناصر الإشارية غير المبهمة، فهي المحدودُ منها (أو المُوقَّتُ أو المختصُّ)، وهو غير المبهم: ما دلَّ على وقتٍ مُقدَّرٍ مُعَيَّنٍ محدودٍ، نحو (ساعةٍ، ويومٍ وليلةٍ، وأُسبوعٍ، وشهرٍ، ، وسنةٍ وعامٍ)، ومنه أسماءُ الشهور، والفُصولِ، وأيام الأسبوع وما أُضيفَ من الظروف المُبهَمةِ إلى ما يزيلُ إبهامَهُ وشُيوعَهُ، كزمانِ الرَّبيعِ، ووقتِ الصيف[48].

ومن مظاهر العناصر الإشارية غير المبهمة قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت:10] .

فالقوة التداولية للملفوظ الإشاري (أربعة أيام)، تشير إلى زمان محدد لدى المتكلم؛ لكون اليومان الأوليان داخلين في هذا المجموع، فضلًا عن أنها دلت على قدرة الله في خلق هذا الكون في مدة محددة؛ «أي في تتمة أربعة أيام»[49].

وتشمل العناصر الإشارية الزمن النحوي في الفعل، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا﴾ [الأعراف: 20].

يدل الفعل (وسوس) في سياق التلفظ على قوة تداولية هي الإغراء والإلحاح، والإشعار بأن الشيطان لا يريد لهما النعيم، فضلًا عن أنه يصرح بالتسلسل السببي للأحداث ويوثقها، ويشكل سبب الوقوع في المعصية والخطأ؛ «أي فعل الوسوسة لأجلهما، أو تكلم لهما كلاما خفيا متداركا متكررا، وهي في الأصل الصوت الخفي كالهيمنة والخشخشة ومنه وسوس الحلي»[50].

المطلب الثالث: الإشاريات المكانية.

الإشاريات المكانية: هي من العناصر اللغوية التي تأتي للإشارة إلى مكان في سياق الكلام ومرجعيتها غير ثابتة، ولا محددة فهي عناصر تشير إلى أماكن تعتمد على معرفة مكان المتكلم وقت التكلم[51]، ولا تحمل دلالتها في ذاتها؛ بل إن معناها يتحدد بسياق التلفظ، فإن أقول: (أنا جالس قرب المنزل) يظهر أن ظرف المكان قرب المنزل لا قيمة له إلا في علاقته بمكان التلفظ، كذلك إذا غير المتكلم مكانه، وابتعد عن موضع جلوسه السابق، سيصبح ظرف المكان مجردا من معناه؛ لذلك فإن تحديد المرجعية المكانية تفرض على المخاطب مراعاة سياق إنتاج الخطاب، وإذا كان النحاة قد ألصقوا الإبهام بأسماء الإشارة فإن اللسانيات التداولية فصلت هذه الخاصية حينما سلمت بأن ورودها في الخطابات، واستخدامها يظل رهينا بمقاصد المتكلم، وبسياق الكلام، ومن ثم فإن أسماء الإشارة لا تحيل بذاتها بقدر ما تعتمد اعتمادا كليا على غيرها للانتقال من حالة الابهام إلى حالة التعيين، والتحديد[52].

ومن أمثلة الإشاريات المكانية قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [يوسف:10]، فالقيمة التداولية من اختيار الإشارة المكانية (غيابت)، تتمثل في: تحقيق الإخفاء التام، والانقطاع عن الأنظار والأسماع، بحيث يستحيل الوصول إلى يوسف بسهولة، فاختيارهم للمكان كان دقيقًا للغاية؛ «أي في قعره وغوره، والجب البئر التي لم تطو بعد»[53].

وقوله تعالى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[يوسف:12].

يدل الملفوظ الإشاري (معنا) في سياق التلفظ قيمة تداولية تتمثل في إن يوسف سيكون بعيدا عن بيته؛ لكنه مع إخوته، وهذا هو أساس مكيدتهم وغايتهم، أن ينفردوا به، «إلى الصحراء»[54].

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس:30].

إن الإشارة المكانية (هنالك)، تحيل إلى الزمان في قوله تعالى﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا...﴾؛ أي أنها تحيل إلى موقف الحساب والجزاء يوم القيامة، يوم الاختبار العظيم، إذن؛ فالقيمة التداولية للفظ (هناك)، لا تشير إلى مكان فحسب؛ بل إلى مرحلة لا مهرب منها، وإلى تقرير مصيري لا رجوع عنه، حيث استحضرت مشهد يوم القيامة، وعززت المصير الحتمي، ورسخت فردية النفس يوم الحساب، حين تظهر كل نفس ما كسبت، وتتكشف الحقائق، ويرد الجميع إلى الله

الحق، {هنالك} أي: في ذلك المقام الدهِش، أو في ذلك الوقت على استعارة ظرف المكان للزمان تبلو أي تختبر وتذوق»[55].

المطلب الرابع: الإشاريات الاجتماعية.

هي الألفاظ والتراكيب التي تشير إلى العلاقة الاجتماعية بين المتكلمين، والمخاطبين من حيث هي علاقة رسمية، يدخل فيها صيغ التبجيل في مخاطبة من هم أكبر سنا، ومقاما من المتكلم، وكذلك في مراعاة المسافة الاجتماعية بينهم، وتشمل الألقاب مثل: فخامة الرئيس، أو الإمام الأكبر، أو جلالة الملك، أو فضيلة الشيخ، وكثيرا من هذه الألفاظ تحدد مكانة اجتماعية معينة, وتستعمل ألفاظا وإشاريات، مثل: (حامل)، و(حبلى) أو(زوجة)، أو(امرأته)، وهكذا دواليك[56].

ومن مظاهر الإشاريات الاجتماعية ما جاء في لقوله تعالى:﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 18].

تحيل الإشارة الاجتماعية (أولو العلم)، إلى فئة خاصة من الناس، يشهدون بوحدانية الله، وهم الأنبياء والعلماء، والقيمة التداولية تتجلى في بيان فضل العلم وأهله، فهم أعلى منزلة بعد الملائكة، وهذه الإشارة تشريف عظيم للعلماء، حيث رفعت مكانتهم باقتران شهادتهم مع الله وملائكته، وأكدت الشهادة بعقول راجحة، وبأناس ذوي مصداقية عالية، وعملت على تعزيز ثقة الناس فيهم، ومنحهم سلطة عالية ودورًا اجتماعيًا في حفظ الدين وإقامة الحق، ويكفي العلم فضلًا أن الله قرن اسمه واسم ملائكته بأهله، يقول المفسر: «المراد بهم الأنبياء –عليهم السلام–، وقيل المهاجرون والأنصار، وقيل علماء مؤمني أهل الكتاب... وقيل جميع علماء المؤمنين الذين عرفوا وحدانية تعالى»[57]، ويشير المفسر إلى مدح هذه الفئة من الناس.

ومن الإشاريات الاجتماعية قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال: 40]، يشير العنصر الإشاري (أن الله مولاكم)، إلى حب الله لرسوله–صلى الله عليه وسلم– وللمسلمين، وطبيعة العلاقة الاجتماعية بين المسلمين، وهذا ما نلمحه في تفسير أبي السعود « فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾، ناصركم فثقوا به ولا تبالوا بمعاداتهم»[58].

ويقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ[﴾الأنفال: 73]، يشير العنصر الإشاري: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ إلى كراهية الله للكفار، وطبيعة العلاقة الاجتماعية بين الكفار، «وهذا بمفهومة مُفيدٌ لنفي الموارثة والموازرة بينهم وبين المسلمين وإيجابِ المباعدةِ والمصارمة وإن كانوا أقارب»[59].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

فالعناصر الاشارية ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾، تدل في سياق الخطاب القرآني على عظمة الخالق«أي نحن بعِظَم شأنِنا وعلوّ جنابنا نزلنا ذلك الذكرَ الذي

أنكروه وأنكروا نزولَه عليك ونسبوك بذلك إلى الجنون»[60].

ومن العناصر الإشارية الاجتماعية ما يدل على التبجيل قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (119) سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (120)﴾[الصافات: 119-120].

فالقيمة التداولية للملفوظ الإشاري (سلام)، هي ثناء الله على أنبيائه وتحيته لهم؛ «أي أبقينا فيما بين الأممِ الآخرين هذا الذِّكرَ الجميلَ والثَّناءَ الجزيلَ»[61].

المطلب الخامس: الإشاريات الخطابية.

تعد الإشاريات الخطابية من خواص الخطاب، وتتمثل في العبارات التي تذكر في النص، مشيرة إلى موقف خاص بالمتكلم، وتشمل عبارات من قبيل: لكن، بل، وفضلا عن ذلك، وقيل، ومهما ...[62].

وقد تفطن كثير من العلماء لمثل هذه الإشاريات التي تستعمل في الخطاب دلالات إشارية مرجعية متباينة، تتحدد بإطار الخطاب ومكوناته المقامية[63].

ومن مظاهر الإشاريات في الخطاب القرآني قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: 55].

فالقيمة التداولية الحجاجية للملفوظ (إنما)، تقتضي في سياق التلفظ القصر والاختصاص؛ أي «لما نهاهم الله عزَّ وجلَّ عن موالاة الكفرة وعلّله بأن بعضَهم أولياءُ بَعْضٍ لا يُتصوَّرُ ولايتُهم للمؤمنين، وبين أن من يتولاهم يكون من جملتهم، وبيَّن ههنا من هو وليُّهم بطريقٍ قصَرَ الولايةَ عليه كأنه قيل لا تتخذوهم أولياءَ لأن بعضَهم أولياءُ بعضٍ وليسوا بأوليائكم إنما أوليائكم الله ورسولُه والمؤمنون فاختصُّوهم بالموالاة ولا تتخطّوهم إلى غيرهم»[64].

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: 45].

فالقيمة التداولية الحجاجية للملفوظ (إنما)، تقتضي في سياق التلفظ التخصيص؛ أي: «تخصيصُ الإيمان بهما في الموضعين للإيذان بأن الباعثَ على الجهاد ببذل النفسِ والمالِ إنما هو الإيمانُ بهما إذ به يتسنى للمؤمنين استبدالُ الحياةِ الأبديةِ والنعيمِ المقيمِ الخالدِ بالحياة الفانية والمتاعِ الكاسد»[65].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 162].

فالقيمة التداولية للملفوظ (لكن) التي تدل في سياق التلفظ على الاستدراك، «استدراكٌ من قولِه تعالَى وَأَعْتَدْنَا الخ وبيانٌ لكون بعضِهم على خلاف حالهم عاجلاً أو آجلاً أي لكن الثابتون في العلم منهم المُتقِنون المستبصِرون فيه غيرُ التابعين للظن كأولئك الجَهَلة والمرادُ بهم عبدُ الله بنُ سلام وأصحابُه»[66].

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 67].

جاء الاستدراك بـ (لكني) لنقض الافتراض الضمني لدى السامعين بأنه سفيه، وتقديم الحقيقة الغائبة عنهم بتثبيتها في قوله: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فالقيمة التداولية للإشارية الخطابية (لكني) المتمثلة بالتلطف، مهدت لانتقال الكلام، وتحويل مساره من دحض التهمة إلى إثبات الرسالة، وأخرجته من الدفاع إلى الإيضاح والتبيين، ووجهت الانتباه إلى ما بعد لكن، وفي الاستدراك تلطف في المواجهة، حرصًا على علاقة هود بقومه واستمالتهم إليه، وهذا ما نلمحه في تفسير أبي السعود، قال: مستعطفا لهم ومستميلا لقلوبهم مع ما سمع منهم ما سمع من الكلمة الشنعاء الموجبة لتغليظ القول والمشافهة بالسوء {يا قوم ليس بي سفاهة} أي: شيء منها ولا شائبة من شوائبها {ولكني رسول من رب العالمين}، استدراك مما قبله باعتبار ما يستلزمه ويقتضيه من كونه في الغاية القصوى من الرشد والأناة والصدق والأمانة، فإن الرسالة من جهة رب العالمين موجبة لذلك حتما كأنه قيل ليس بي شيء مما نسبتموني إليه، ولكني في غاية ما يكون من الرشد والصدق ولم يصرح بنفي الكذب اكتفاء بما في حيز الاستدراك»[67].

ومن مظاهر ذلك: ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠].

فالقيمة التداولية للإشارية الخطابية (أم) التي جاءت بمعنى (بل)، تتجلى في كونها حولت المسار الحجاجي داخل الخطاب، وخلقت تقابلًا حواريًا، فالخطاب هنا حصر المخاطبين في أمرين: إما أنهم يدعون علما كذبًا، أو يتكلمون بدون علم أصلًا!، فالآية تحاجج من يزعم أن نجاته مضمونة، وأن النار لن تمسه إلا أيامًا معدودة فقط، فجاء الرد الحجاجي بالسؤال: هل لديكم عهد بذلك؟ ثم بالتفنيد: أم أنكم تتكلمون بدون علم؟!، وقد أشار أبو السعود إلى أن القيمة التداولية للاستفهام هو التقرير المؤدي للتبكيت؛ لتحقيق العلم بما بعد أم، فالمعنى أنتم لم تأخذوا عهدًا من الله بل افتريتم عليه القول، إذن؛ فالقيمة التداولية للإشارية (أم) هي فضح الادعاء وزيفه، فنقلت المعنى من التوبيخ بالإنكار على اتخاذ العهد إلى ما تفيد همزتها من التوبيخ على التقول على الله سبحانه كما في قوله –عز وجل– ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]»[68].

4- الخاتمة:

يتبين من خلال الدراسة النظرية التطبيقية، أن دراسة وتحليل العناصر الإشارية في الخطاب القرآني من خلال تفسير أبي السعود، تظل مفرغة من محتواها، ولا يمكن تحديد مراجعها وأبعادها التداولية إلا من خلال سياق الاستعمال

والمقام الذي ترد فيه، لذا؛ توصل البحث إلى جملة من النتائج أهمها:

1- أن الإشاريات تمثل صورة ذهنية واضحة المعالم لدى المتلقي من خلال استعمالاتها في سياق الخطاب، وتصنع عرى تواصلية وثيقة؛ ليتحقق نجاح الرسالة كما أرادها المتكلم بكل تعابيرها الدقيقة.

2- أثبت البحث وعي أبي السعود المبكر بآليات التداولية، مما يؤكد تلاقي التراث مع اللسانيات المعاصرة.

3- أن فاعلية الإشاريات الشخصية والزمانية والمكانية والاجتماعية والخطابية، تكمن في الكشف عن الأبعاد التداولية للإشاريات في الخطاب القرآني من خلال تفسير أبي السعود، وفق السياق والمقام الذي ترد فيه.

4- اتفق القدماء مع المحدثين في كثير من الإشاريات كالضمائر، والظروف الزمانية، والمكانية، وهذا ما لمحناه في تفسير أبي السعود.

التوصيات:

توصي الباحثة بدراسة بلاغية شاملة لتفسير أبي السعود العمادي في كتابه إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، كما توصي بدراسة الحجاج في كتاب أبي السعود العمادي في دراسة لسانية مستقلة.

5- الهوامش:

(1) ابن فارس، أحمد، مجمل اللغة، تح: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1406 هـ1986م، 340/1.

(2) ابن فارس، أحمد، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ - 1979م 314/2.

(3) ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل، المحكم والمحيط الأعظم، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط 1، 1421هـ- 2000م، 428/9.

(4) الزمخشري، محمود بن عمر بن أحمد، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1419هـ- 1998م 303/1.

(5) الزجاج، إبراهيم بن السري، معاني القران وإعرابه للزجاج (ت 311هـ)، تح: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1408هـ - 1988م، 5/ 146.

(6) ينظر: بلانشية، فيليب، التداولية من أوستين إلى غوفمان فيليب بلانشيه، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، 2007م، ص: 181.

(7) روبول، آن موشلار جاك، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: د. سيف الدين دغفوس، د. محمد الشيباني، دار الطليعة للنشر، بيروت - لبنان، ط1، 2003م، ص: 29.

(8) عياشي، منذر، اللسانيات والدلالة، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1، 1996م، ص: 71.

(9) بوقرة، د. نعمان، المدارس اللسانية المعاصرة، مكتبة الآداب للطباعة والنشر، القاهرة، 2004م، ص: 166.

(10) بلانشية، التداولية من أوستين إلى غوفمان ص: 12.

(11) يول، جورج، التداولية، Pragmatlcs، ترجمة: د. قصي العتابي، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1، 1431هـ - 2010م. ص: 19.

(12) فان دايك، النص والسياق، تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، د. ط، 2000م، ص: 255.

(13) الزناد ، الأزهر، نسيج النص بحث في ما به يكون الملفوظ نصًا، المركز الثقافي العربي، بيروت – لبنان،ط1، 1993م، ص 116.

(14) الشهري، عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب المتحدة، بيروت – لبنان، ط1، 2004م، ص 82، وينظر: يول جورج، التداولية، PRAGMATics ،ترجمة: د. قصي العتابي، الدار العربية للعلوم، بيروت – لبنان، 1431هـ – 2010م.، ص 28.

(15) نحلة، أ. د. محمود أحمد، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 1422هـ – 2011م، ص 17.

(16) ينظر: ختام جواد، التداولية أصولها واتجاهاتها، دار كنوز المعرفة، عمان – الأردن، ط1، 1437هـ – 2016م، ص 75 – 76، وينظر: السيساوي، يوسف، المقاربة التداولية للإحالة، بحث ضمن كتاب، التداوليات علم استعمال اللغة، علوي، حافظ إسماعيلي، عالم الكتب الحديثة، أربد – الأردن، ط2، 2014م، ص 458.

(17) السيساوي، المرجع نفسه، ص441.

(18) الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 82.

(19) سرحان، إدريس، التأويل الدلالي – التداولي للملفوظات وأنواع الكفايات المطلوبة في المؤول، بحث ضمن كتاب التداوليات علم استعمال اللغة، ص 155.

(20) الشوكاني، محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (ت 1250)هـ، دار الكتاب الإسلامي – القاهرة، د. ط، د. ت، ، 261/1.

(21) ينظر: الأدنهوي، أحمد بن محمد، طبقات المفسرين، تح: سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم – السعودية، ط1، 1417هـ– 1997م، ص: 398.

(22) ينظر: المصدر نفسه، ص: 398.

(23) ابن عاشور، محمد الفاضل، التفسير ورجاله، مجمع البحوث الإسلامية، 1390هـ– 1918م، د. ط، ص: 112.

(24) الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 85.

(25) ينظر: الزناد الأزهر، نسيج النص (بحث ما يكون به الملفوظ نصًا)، ص 117. .

(26) الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 82.

(27) ينظر: بنفنست، إميل، الذاتية في اللغة، ترجمة: حميد سمير، عمر حلى، مجلة نوافذ، العدد 9، جمادي الأول، 1420هـ سبتمبر 1999م، ص 70 – ص 71.

(28) الشهري، استراتيجية الخطاب، ص 82.

(29) ينظر: مصطفى، حمادي، تداوليات الإشاريات في الخطاب القرآني، مقاربة تحليلية لكشف المقاصد والأبعاد، مجلة الأثر، جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس، الجزائر، العدد 26، 2016م، ص 64.

(30) نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 18.

(31) العمادي، أبو السعود بن محمد، تفسير أبي السعود المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، تح: عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، مطبعة السعادة ، 2/ 713.

(32) ينظر: الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية، ص: 292.

(33) العمادي، تفسير أبي السعود، 76/1.

(34) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو، المفصل في صنعة الإعراب، تح: د. علي بو ملحم، مكتبة الهلال – بيروت، ط1، 1993م، ص: 172.

(35) العمادي، تفسير أبي السعود، 119/1.

(36) المصدر نفسه، 119/1.

(37) ينظر المصدر نفسه، 2/ 209.

(38) المصدر نفسه، 2/ 38.

(39) المصدر نفسه، 2/ 80.

(40) المصدر نفسه، 6/ 19.
(41) المصدر نفسه، 4/ 169.
(42) المصدر نفسه، 5/ 590.
(43) المصدر نفسه، 165/1.
(44) نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 20.
(45) الحاج، لسانيات التلفظ، ص: 117.
(46) نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص: 19- 20.
(47) العمادي، تفسير أبي السعود، 3/ 153.
(48) الغلاييني، مصطفى بن محمد سليم، جامع الدروس العربية، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ط28، 1414 هـ - 1993م، 49/3.
(49) العمادي، تفسير أبي السعود، 11/3.
(50) المصدر نفسه، 333/2.
(51) ينظر: نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي، ص: 21.
(52) ينظر: الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص: 81- 82.
(53) العمادي، تفسير أبي السعود، 114/3.
(54) المصدر نفسه، 115/3.
(55) المصدر نقسه، 2/ 658.
(56) ينظر: نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص: 25.
(57) العمادي، تفسير أبي السعود، 1/ 453.
(58) المصدر نفسه،2/ 488.
(59) المصدر نفسه، 2/ 511.
(60) المصدر نفسه، 3/ 296.
(61) المصدر نفسه، 4/ 547 – 548.
(62) ينظر: نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص: 24.
(63) ينظر: دلخوش، التأشير والتباعد بين القدماء والمحدثين مقاربة تداولية، ص: 458.
(64) العمادي، تفسير أبي السعود، 2/ 79.
(65) المصدر نفسه، 2/ 558.
(66) المصدر نفسه، 1/ 812.
(67) المصدر نفسه، 2/ 357.
(68) ينظر: المصدر نفسه، 202/1، 203.

6 – المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم
2. ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل، المحكم والمحيط الأعظم، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط 1، 1421هـ– 2000م.
3. ابن عاشور، محمد الفاضل، التفسير ورجاله، مجمع البحوث الإسلامية، 1390– 1918م د.ط.
4. ابن فارس، أحمد، مجمل اللغة، تح: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1406 هـ، 1986م.
5. ابن فارس، أحمد، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ - 1979م.
6. العمادي، أبو السعود، محمد، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تح: عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، مطبعة السعادة.
7. الأدنهوي، أحمد بن محمد، طبقات المفسرين، تح: سليمان بن صالح الخزي،

مكتبة العلوم والحكم – السعودية، ط1، 1417هـ- 1997م.
8. بـــوقرة، د. نعمـــان، المـــدارس اللســـانية المعاصـرة، مكتبـة الآداب للطباعـة والنشـر، القاهرة، 2004م، ص: 166.
9. الحاج، ذهبية حمود، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، الأمل للطباعة والنشر، ط2.
10. حسن، عباس، النحو الوافي، دار المعارف، ط15.
11. ختام، جواد، التداولية أصولها واتجاهاتها، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ط1، 20016م – 1437هـ.
12. الزجاج، إبراهيم بن السري، معاني القرآن وإعرابه، تح: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب– بيروت، ط1، 1408 هـ – 1988م
13. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو، المفصل في صنعة الإعراب، تح: د. علي بو ملحم، مكتبة الهلال – بيروت، ط1، 1993م.
14. الزمخشري، محمود بن عمر بن أحمد، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط1، 1419هـ- 1998م.
15. الزناد، الأزهر، نسيج النص بحث في ما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، ط1، 1993م.
16. الشهري، عبد الهادي ظافر، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة المتحدة ط1، 2004م.
17. الشوكاني، محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (ت 1250)هـ، دار الكتاب الإسلامي – القاهرة، د. ت، د. ط.
18. عياشي، منذر، الكتابة الثانية وفاتحة المتعة، المركز الثقافي العربي، ط1، 1998م.
19. عياشي، منذر، اللسانيات والدلالة، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط1، 1996م.
20. الغلاييني، مصطفى بن محمد سليم، جامع الدروس العربية، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ط28، 1414 هـ – 1993م.

المراجع المترجمة:

21. بلانشيه، فيليب، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، 2007 م.
22. روبول، آن موشلار جاك، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: د. سيف الدين دغفوس، د. محمد الشيباني، دار الطليعة للنشر، بيروت – لبنان، ط1. 2003م.
23. فان دايك، النص والسياق، تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، د. ط، 2000م.

24. يول، جورج، التداولية، Pragmatlcs، ترجمة: د. قصي العتابي، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1، 1431هـ – 2010م.

المجلات والدوريات:

25. بنفنست، إميل، الذاتية في اللغة، ترجمة: حميد سمير، عمر حلى، مجلة نوافذ، العدد 9، جمادي الأول، 1420هـ سبتمبر 1999م بنفنست، إميل، الذاتية في اللغة، ترجمة: حميد سمير، عمر حلى، مجلة نوافذ، العدد 9، جمادي الأول، 1420هـ سبتمبر 1999م.
26. دلخوش، جار الله حسن، التأشير والتباعد بين القدماء والمحدثين مقاربة تداولية، مجلة جامعة زاخوا المجلد، 3 العدد 2، جامعة صلاح الدين كوردستان العراق، 1447هـ 2015م.
27. مصطفى، حمادي، تداوليات الإشاريات في الخطاب القرآني، مقاربة تحليلية لكشف المقاصد والأبعاد، مجلة الأثر، جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس، الجزائر، العدد 26، 2016م.